لماذا يبدي الشعر ؟

بقلم عزيز السيد جاسم

في علاقة الانسان بالكون تتواجد تعبيرات انسانية عديدة تعكس نوعية العلاقة وتمثل التجاوب بشكل او بآخر ، بين الذات والعالم .والانسان عندما يخلق تأليفاته الخاصة انما يقرر مبدأاساسيا هو حتمية استحصال حقائق مهيأة وبشكل فني لتوفير مكانة لائقة به. وحيث تتأكد ترجمة هذا المبدأ تتحول كل التصرفات والمعارف والحدوس الى تنقيب بطولي عن جذور الاشياء ، واحتمالات المواقف واعطاء الاجوبة لكل الاسئلة بشكل جاهز أو مؤجل .

ان البحث عن الحقائق هو بالاساس اقرار بوجود مجاهيل كثيرة. ان التعميات والاسرار وسيولة الاشياء ومسائل المصير ، تفرض على الانسان ان يختار سبلا متعددة في بحثه الجاد هذا . وهنا تتعين وضعيتان انسانيتان تماما . فالانسان يغير عالمه بفعل من استعمال ادواته المتجددة لغرض ان يستوفي شروط حياة اكثر اشراقا ،وهو ايضا يتغير ضمن كل هذه العملية . وانطلاقا من وضعية الانسان هذه في بحثه وتغيره وقابلياته يبدو الشعر كلغة جديدة يتفاهم بها الانسان مع نفسه او مع العالم .

ان كون العالم حاملا لغرائب كثيرة وملغما في منحنيات عديدة، وكون الانسان نفسه مشدودا بين أقطاب كثيرة تتنازع ذاته ، انما يبرر كل التجديدات والتطورات في لغة التفاهم بين الذات والكون. لذا فلغة الشعر هي لغة لا تخضع ابدا لانماط وقوالب معينة .ان النمطية قد تصح مثلا في ضروب اخرى من النشاط البشري ،ولكنها لا تتفق مع الشعر .

ان الشعر هو ثورة مستمرة وتحطيم كلي لكل حواجز اللغة .وحيث ان اللغة نفسها نشأت كنشاط فني ، فهي ترتبط مع الفن طبيعيا وعضويا ، وقد بين ذلك (كروتشه) جيدا ، فاللغة منذ البدء هي تشكيلة شاعرية ، وجهد الانسان البدائي من أجل ايجاد الكلمات) كان جهدا معرفيا وشاعريا ، لان موسيقى الحروف (حيث لكل حرف صوت منفوم) هي روح شعرية بدائية . وبقدر ما تتغير اللغات وتتجدد ، وتتعدد اللهجات تظل القصيدة دائما تحققا لثورة وتمردفني. اي انها تمرد لحظي متواتر من أجل اذابة اي فرق بين((الكلمات)) و(الدليل) . ان هذه الحركة في القصيدة ليست حركة صارخة بل هي حركة خفية جدا وراء سطح الكلمات حيث تسعى المضامين والتأملات والاسئلة والاجوبة لاعلان نفسها نازعة كل ثقل وسطوة اللغة وموفرة لها وجودا جديدا . ان (اليوت) في جرأته النادرة على (تحدي اللغة) وزحزحة مواقعها لم يك هادفا فيذلك اثارة ضجة ، بل كان يمثل صراعا بينه وبين قصيدته . ان قانون القصيدة والجو الذي يحياه الشاعر ساعتئذ في استهلاك (الناسوت) والاتحاد الصوفي الكلي بالرؤى ، هو نفسه يفرض على اللغة طلبات جديدة والغاء للمعوقات اللغوية ذات السلطة الطويلة الامد .

ان جو القصيدة السكوني والمحفوف باطار وقاري مهيب في بعض القصائد الكلاسيكية يقدم دليلا على جودة في الصنعة ولكنه لايتعامل كشعر . فالقصيدة تعكس تماما الحركة الداخلية والحيوية حيث يتضح (النفي) قانونا خطيرا في عالم معقد . وهي هنا في مناضلتها المستمرة ضد صلابة الكلمات وعدم الطواعية وبيوسة المصطلحات اللغوية انما تمثل حرية كاملة ، لذا فليس من المعقول اذن ان يسمى القصيد المحشور ضمن مذهبية متحجرة وأنماط مفروضة شعرا.

لان الشعر ليس (موضة) موروثة ولا وسيلة دعائية او جوابا لطلب خارجي ، بل هو خلاص وتكشف مستمر وغير محدود . ذلك التكشف الذي اراده (انطونن أرتو) في قوله : (حيث يريد الاخرون بناء اثار لا اطمح أنا الا الى اظهار روحي). وان تأكيد القيم الانسانية من خلال المصطلح الشعري هو التقاط واع مخلص لكل القيم التي كانت وتظل الصدى في دروب الانسان وصراعاته المستمرة .

ان عالما بدون قيم هو وبالاساس عالم يمهد لقيم خطرة وحيوانية شرسة . والبديل الوحيد لفقدان القيم هو السلوك والاستحواذ البربريان . وهنا السر في قداسة القيم على اعتبار انها مصطلحات انسانية عميقة الجذور وفاعلة تشكل ادوات استعمال الانسان الايجابي والحضاري . وهذه القيم ، وبفعل من التراكم القيمي والامتدادات الزمنية ، تتعرض الى تغطية تراثية وتفقد بريقها المرتبط مباشرة بشروطه المرحلية لا غير ..

لذا فان مسالة تأكيد القيم هي غربلة لهذه القيم واعادة عرض . والشعر نفسه ، على اعتبار انه صعود وتسام فوق التقليديات الموروثة والخطوط المتشابكة الاكثر تجمدا وسوادا واقعيا ، يسهم باضاءة كلية في اخفاء شروق جديد على القيم المناسبة . وهذه القيم ليست كما يتصور لاول وهلة ، قيما الزامية او مواثيق اخلاقية او ايديولوجية بل انها تلمس انساني يتبرعم في أكمل حالات الحرية والصفاء التي يعيشها الشاعر ساعة التوالد الشعري العفوي .

ان العملية هي عملية تكشف منذ البدء حيث ان الشاعر لا بد ان ينطلق من حقيقة او من وجود موضوعي مع ذاتيته . ولهذا فليست القصيدة صيحة تقذفها دار خربة ، انها العطاء الذي يمنحه الانسان الاكثر تشوقا لمعرفة نفسه ، تلك المعرفة التي قصدها (ييتس)عندما قال : (لماذا تمجد اولئك الذين استشهدوا في ساحة القتال ، ان الانسان قد يبدي شجاعة مماثلة وهو يخترق اغوار نفسه) .

لذا فالتكشف هو مجاهدة وتعرية حقيقية وازاحة الالتباسات وموروثات كثيرة ، انه محاولة الوصول الى النقاء الابدي . وعبر هذه المحاولة تستلم ذات الشاعر اسمها الحقيقي .. وهنا يبرز التساؤل: هل ان الشاعر صاحب حقائق جاهزة ؟ وهنا تتعقد القضية نوعا ما، فالشاعر لا يتكلم عن حقائق ومعلومات منظمة ويقينية . انه لا يتكلم بلهجة العلم الطبيعي او الرياضي حتى وان اكد على حقيقة يتفق فيها معهما . الحقائق بالنسبة للشاعر عالم خاص يقترب ويبتعد عنه ، او يدخل فيه ، ويتعامل معه برفق وهدوء ، او بحدة وغضب ، بموضوعات جاهزة او مقلوبة . حيث لا مجال هنا لاية اصولية تفرض على الشاعر التزامات مقيدة .

لذا فالشاعر عندما يريد ان يقدم عطاءه الشعري انما يؤكد انه مزيج بين المعرفة والجهل ، المعرفة الجيدة الواضحة والجهل المسقط في يده . فالشاعر يعرف مواقعه ومنطلقاته ، ويعرف جيدا كل ادواته ولكنه في نفس الوقت يجهل كيف يكون الانسان ـ اللوغوس ، كيف يربط بين فردوس امثل لا وجود له الا في مخيلته وبين عالم ارضي ملوث ؟ كيف يحقق كشفا ثاقبا لذاته في عالم يتعقلن بآلية غريبة ، في حين انه يتمرد بين الحين والحين على هذه العقلنة وعالم المعقوليات ؟ المهم في المسالة كلها ان الشاعر يتكشف باستمرار ويتصل باستمرار اكثر بعالم من الرؤى ، خلاله يبحث عن

صورته الحقيقية وصوته الحقيقي .

وهذا الكشف نفسه ليس معزولا عن شروطه الاصيلة ، انه استكشاف للعالم ايضا . اي انه التلاحم بين استكشاف الذات وتلمس حدودها ومعرفة جذورها ، وجسدها ، ونوافذها ، وبين العالم ، هو تلاحم طبيعي تماما . وان مسالة من اين الابتداء او اعطاء حدود شكلية تفريقية تعزل الذات عن العالم ، والعالم عن الذات هي مسالة اضطرارية تتهافت امام ابسط استقراء لقضايا الانثروبولوجيا والتكون الانطولوجي .

الشعر : استئناف ضد العالم

ان ما يثير اعصاب الشاعر هو ان هذا العالم يحيا بلا عقل ،وباسم اكثر الاساليب عقلية تتم ابادة الانسان بالتآمر على حريته .واذ يبدو هذا البناء الحضاري الشامخ المجيد منخورا ، وحيث تتم اغلب الصفقات الدنيئة على حساب الانسان وشرفه فان الشاعر يجد نفسه منتصبا متحديا . والتحدي ليس تلاوة وثيقة او بيان ، انما هو رفض كلي لواقع فاسد ، يعلن نفسه في كلمات الشاعر . وهذه الكلمات هي المسدسات المحشوة بالرصاص والتي تقدم احتجاجا ساخطا يدين اللؤم البشري . ان ابتعاد الشاعر ضمن مسافة بينه وبين العالم واستغراقه في رؤياه الشعرية يحمل في جوهره فضحا للاحرية .وان الانقلاب الذي عاشه الشاعر - اي شاعر - يرسم نفسه بتوتر انعكاسي حيث يسقط نور الالفاظ الشعرية على النقطة السوداء الفاسدة ليمنح للقراء والمتاملين حدودا جديدة اوسع لرؤيا كاشفة .

ان الترتيب الذي يخلق نظاما متشيئا تتحول نظاميته الى اغلال تضايق الحرية الانسانية ، وبفعل من حقيقة ان الشاعر حرية مطلقة في حدود نسبية فهو يتمرد ضد مثل تلك التموضعات الجائرة . لذا فان الشاعر يعبر عن تحدياته ورفضه للزوجة الشيئية ونظامية العقل الثقيلة ويفكك وحدات العالم لكي يحقق اختراقا مغامرا مندفعا الى لا نهائية عنيدة . ان الشاعر كمعترض على موجودات اكثر ثقلا واكثر جورا ، يستانف نشاطه الرافض باعادة تشكيل العالم. فهو بعد ان فككه استغرق في محاولة تاملية لخلقه من جديد . وحيث ان الشاعر في عمليته تلك لا يستطيع ان يقدم تشكيلة فنية مرغوبة من مواد فعلية واشياء حاضرة ، بل ينجز امكانية واحدة هي امكانية رسم تشكيلة مشرقة من مجموعة صور ورموز ذات دلالات، فمعنى ذلك ان الشاعر يكبت في اعماقه تناقضا رئيسيا .

وهذا التناقض قد يبرر بكونه امكانية موضوعه بهذا الشكل ،او يكون مجرد احتيال . لماذا ؟ لان الشاعر بوهمنا بتحرره النهائي من تاثير الاشياء الدائرة به ، وانتقاله الى عالم جديد يزدهي صفاء وبهجة ، فيرتب لنا صورا تعكس عالمه الذي احتفى به ، ولكنه يصدمنا عندما يعود من جديد ويرتمي في حضن الاشياء . وبذا يبرز البعد المأساوي كخط ينتظم احيانا اعمال الكثير من الشعراء . ان الاشياء اصلب منا واخلد ، هذا هو ما يقذف الشاعر الى هوة عميقة . ولكن الشاعر لا يرتضى الصمت فهو إذن يبدأ استئنافه من جديد، وفي ميلاد كل قصيدة مؤكدا حريته . وهذه الحرية تكتشف وانتزاع مستمر تصطدم بأسيجة عديدة . وعندما تكون هذه الاسيجة اصطناعية بدعوى من اضطهادات قائمة او اختلالات في الوعي ، تتعين هذه الحرية بمجموعات شعرية مشحونة بتمرد ثوري وزخم يستهدف ازالة المواقع المؤتلفة مع الوضع الانساني . وهنا يكون هذا الاستئناف بطوليا وفاعلا على اعتبار انه وثيقة ادانة وشاهد حتمية افلاس وضع غير مشروع . انه اسهام والتزام يتوضح عبر مسؤولية لا يمكن الحياد عنها .ان قصيدة الشاعر (روبرت أ.هايدن) مثلا والتي يقول فيها:

(انني أرى آلافا من العبيد
ينهضون
من القبور المنسية
ومن جراحاتهم تسيل السنة اللهيب
حتى أرض العبودية
وسلاسلهم تهز (يكسي)
في قصف شبيه بالرعود
(جبرائيل ، جبرائيل ، ألا ترى ألا تسمع ؟؟؟
ان النهاية قريبة
فماذا تتمنى ؟
قل قل قبل ان تموت
انك تريد ان ترضع الثورة
من ثدي آلام العبده
لان الزنوج لن يرتاحوا طالما ان للعبودية دعائم
فحطموها واتركوها ذرات غبار
أما سلاسل العبودية
فيجب أن يأكلها الصدأ .)

او قصيدة (شنق فاسيلي ليفسكي) لـ (بوتيف) :

(انني أعرف ، آه اعرف انك تبكي يا وطني
لانك في اسرك العبودي
انك تبكي لان صوتك الالهي
هو صوت يائس يدوي في صحراء .)

او (الى حبي الاول) :

(فلتغني لي ، يا فتاتي الرقيقة
فلتغني لي اغنية الحزن هذه !
كيف يتلاقى الاخوة في كراهية ،
وكيف نفقد نحن شبابنا وقوتنا وعقيدتنا
فلتغني كيف تصبح الارامل الوحيدات
وكيف يموت الاطفال من غير بيوت !)

انما تتمثل خلالها وخلال آلاف القصائد سواها المسؤولية الابدية ، هذه المسؤولية التي تتوزع عبر المواقف والمشاهد وعبر حلقات الزمن التاريخي .

وعندما تكون الاسيجة المتحدية والتي تقف وجها لوجه امام حرية الشاعر ، اسيجة الكون الازلي الذي يلتهم بشراهة ملايين الملايين من الاجساد ، فهنا يبدو استئناف الشاعر غضبا او تشاؤما او استسلاما منتكسا . أي ان الحرية (حرية الشاعر) التي اختارت طريقها في جو من الاطلاقية والاثيرية تختار نفيها . أي تختار (اللاحرية) مع (اليوت) :

(هكذا ينتهي العالم
هكذا ينتهي العالم . هكذا ينتهي العالم
لا برجة عنيفة وانما بنواح خافت)

وعند هذه التجربة - تجربة الوحدة امام الكون - تتساقط حريات كثيرة في الفخ كمقدمة للسقطة الابدية . وقليلون اولئك الذين لم يسمحوا للعدم ان يطأ عتبة جبهاتهم ويخذلهم ، فقدموا اروع استشهاد عبر الاصرار الذي يؤرخ عظمة الانسان .

وبين السقطة والاصرار يظل الاستئناف قائما ، لانه حركة تمثل النقيض المقابل لعالم موجود ، أي انه (لا) الضرورية لبقاء (نعم)

منشورات دار الاداب

تطلب في دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار

العالم الآلية . ولكن الشاعر لا يمكن ان يدور لصيقا باستئناف سلبي بل انه يخطو عبر دفق حي تهيله الاعماق من اجل ان يغير التركيب القائم . ان كلمات الشاعر لا تذهب ادراج الرياح ولا يمكن ان تزخرف بناء موهوما . بل انها تقاوم رصف المسوخات لتحارب المسوخية وتحرر الوحدات الطبيعية والانسانية لتوحدها في عالم جديد . ان الشاعر اذن ، وبمجرد ان تنفتح الحواجز امام رؤاه ، يتحول الى خالق. وهذا الخلق الفني الممثل بأروع الصور والاخيلة والموسيقى اللفظية لا يمكن ان نجرده من اية مسؤولية على اعتبار ان جذره ـ اي جذر العطاء ـ ممتد الى عمق موغل في المسافات .

ولكونه متعلقا بتربه فان كل الرؤى المحلقة والرومانسية هي مشدودة الى بعد بؤري تنقاس عليه كل الترابطات والتشكيلات . ولكن مسالة تبرز بصرامة ومن جديد : هل ان امكانية الشاعر وبهذا القياس تظل رهن الاعتقال ؟.. اي محكومة بأن لا تنفلت من أسر الارض والواقع ؟ وهنا لا بد ان نقول : لا . امكانية الشاعر ليست كامكانية الناثر . الناثر يكون مباشرا ، ويدعم عضده القارىء او المستمع المتلقي والذي يتجاوب مع الناثر على ضوء قاسم مشترك من المفاهيم والعبارات والمرتكزات التي تعطي علامات على الدرب من اجل الوصول الى غاية الناثر او القارىء . في حين ان الشاعر يختار ادواته ووسيلته لا من اجل ان يتجاوب مع العالم بل من اجل ان يتجاوب مع ذاته .اي انه يبحث عن العالم بافتراض ان لا عالم يتدخل في وعيه الرؤيوي . ان هذا الافتراض (ان لا عالم سوى عالم الشاعر المنفرد ساعة ميلاد القصيدة) هو نفسه الطريق الوحيد الذي لا يفمط حق الشاعر في تسبيحاته الصوفية وكذا لا يقطع المردود الذي تقدمه القصيدة في العالم ومن أجل العالم . لذا فالشعر هو عملية فرار من الواقع وعودة الى الواقع ، ومزج بين الذات واللاذات ، وتداخل في وحدات الزمن وهذه هي قدرة الشاعر الفنية في محاولته الوصول الى مركز الاشياء والحقائق . وهذه المحاولة هي رغبة صافية . وهي اللذة الجمالية التي تحدث عنها (سانتيانا) بانها لذة الإنسان في ان يفرض مركزه واوهامه على المراكز . ومن المؤكد ان هذه اللذة ليست مجرد غزوة او تسليات لا اكثر ولا اقل ، بل هي مرتبطة اساسا بجهد الانسان في تحسين عالمه : (اللذة الكبرى) .. ولذا فان اعادة النظر تظل دائما نهجا او تجاوبا بين الشاعر والعالم . وهذه (الاعادة) نفسها تولد في الفوضى حيث يعمد الشاعر وبحكم حالات غيابية مرهونة برؤى ثاقبة الى نسيان وجود الاشياء والاشخاص. وهذا النسيان كتذويب للكينونة القائمة من أجل انبثاق كينونة جديدة . ان الكينونة الجديدة التي يطمح لها الشاعر هي خلق وهي مغامرة ، لذلك فمن غير الممكن استجواب الشاعر واخضاعه لاستنطاق لا منطقي. ان منطق الشاعر الوحيد هو الابتعاد عن تلك الموجودات (ساعة المخاض الشعري) . وسواء أكان هذا الابتعاد انحباسا وتوحدا منكفئا نحو الداخل فقط او تحررا من المحدودية والشخصانية والداخل ، فهو طبيعي ومنطقي .وهو اختيار . ولكن هذا الاختيار ليس اختيارا ماورائيا او فوق العالم ، انه اختيار في العالم . ومهما تكن انفلاقات الشاعر وصبواته الحلمية او التخيلية ، فهي مربوطة ابدا بالعالم ، بالماضي والحاضر والمستقبل . ان (مالارميه) الذي قدم شعرا خالصا، كموسيقى لفظية تتحلل من المضامين والمعقول ، لم يستطع ان يخفي الله العجيب لموت أخته . ان العلاقة بين الشاعر والعالم تنفتح منها منظورات العمل الشعري . ومهما تكن هذه المنظورات فهي نفسها استئناف للعالم وللموضوعات المعدة والموروثات القائمة . واستئناف ضد كل الزيف والاهتمامات السياسية التي اسهمت نوعا مافي موت حريات كثيرة . وهذا الاستئناف يحمل طقوس الادانة كدين . وكما يقول (بيرس) : (ومن الحاجة الشعرية ـ وهي حاجة روحية ـ ولدت الاديان نفسها ، وبالنغمة الشعرية تحيا الشرارة الالهية الى الابد في زند البشر !)

بغداد — عزيز السيد جاسم

حزيرانيات

بكائية حزيران ٦٧

يجفُّ على شفة الصيف
ألف انتظار ،
وجوب المواسم يحصد أشواقنا فنبكي ،
وتشرق أعيننا بالبكاء
ولا دمعة ....
تبلُّ مشارف اجفاننا
ونلهث .... نلهث عبر دروب الرماد
و« سيزيف » ربّ تقمّص اجسادنا
كبا الفجر ،
ماتت بأعماقنا هيبة الشمس ،
فوق ضجيج المرايا
تكسر ظلُّ ابتساماتنا
وينتحر الصوت
في هداة الكهف
من وجع الصمت
تبحُّ الحناجر ، ينهار شوق انتظار الصدى

فارس حزيران ٦٩

صلبت على مقلتيّ ارتحالي ، انتعلت الرياح
اتيت :
نواء الجذور ...
مخاض انتظار على شفتين
أتيت :
وصوت (الخزاعيّ) «١»
شقّ امتداد المفازات :
(يالثار الحسين .)
« لهاث الاعنّة افتضّ شوق الصحارى
لوقع السنابكْ
توحمت الارض ، اتخمت بالجراح »
أتيت :
(رؤوس الرماحْ
لأذهب للغيظ)«٢» جرحي ينزُّ .. ينزّ
وتعلو البيارقْ
أتيت : على شفتيّ اخضرار البشاره :
« عروق الرمادْ
تجوع لجمر احتراق (الفينق) ..«٣»

بغداد — عبدالخالق الركابي

(١) سليمان الخزاعي اول ثائر طالب بدم الحسين
(٢) البيت لابي الطيب المتنبي
(٣) الفينق : عنقاء مغرب التي تحرق نفسها في الصحراء العربية لتبعث من رمادها مرة ثانية